الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٠ —

الديانة الفارسية

مصير العالم

يحدثنا قسم « الجاتها » أن نهاية العالم موقوتة بموت « زرادشت » وأن « أهورا » أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا، وهو لهذا يدفعه في حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع ما يستطاع ويأمره أن يصدع بأوامر ربه وأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط، ليؤدي الحساب عن نفسه والشهادة عن جميع أتباعه الذين سيتحقق فناؤهم على أثر موته.

غير أن الكون ظل بعد « زرادشت » سائراً في طريقه كما كان في حياته وقبل وجوده، ولم يعت الأنصار ولا الخصوم، ولم ينته العالم. فلما رأى رجال الدين الألسنة الحداد بدأت تتجه اليهم من جانب خصومهم، أرادوا أن يتحللوا من هذه الورطة التي أوقعهم فيها نبيهم الساذج، فأضافوا إلى الكتاب المقدس آيات جديدة تحوي تأويلات للآيات القديمة وتصرح بأن جميع الزمن المحدد للكون هو اثنا عشر ألف سنة مضت منها ثلاثة آلاف سنة في خلق العالم الروحاني، وثلاثة آلاف في إنشاء العالم المادي، وثلاثة آلاف فصلت بين وجود بني الانسان ووجود « زرادشت »؛ وثلاثة آلاف بين عصر « زرادشت » ونهاية الحياة الدنيا. أما التصريح الجازم في الجزء القديم بأن نهاية العالم ستكون عند نهاية حياة « زرادشت » فقد عرفوا كيف يتخلصون منه بلباقة لا بأس بها حيث أعلنوا أن « زرادشت » لم يمت كما رأى الناس في الظاهر، وإنما نزلت بذرته الخصبة في البحيرة المقدسة، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم، فاذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة، لتغتسل فيها، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى بطن العذراء فتحمل لساعتها بمنجي العالم ومن على يديه سيكون انتهاؤه فاذا ولد هذا المنجي وشب، أخذ يدعو إلى دينه واصطفى له من التلاميذ خمسة عشر رجلا وخمس عشرة امرأة، ليعاونوه على تأدية رسالته إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الكون. وعلى أثر ذلك يبدأ البعث فتمتلىء بقاع الأرض بمياه شديدة الحرارة تسيل كلها من معادن صهرتها النيران القوية فأما الأخيار فيحسون كأنها حمامات من لبن فاتر يجد الجسم فيه لذة وسروراً؛ وأما الأشرار فسيجدونها قاسية مؤلمة، ولعل العذاب بمياه هذه المعادن هو آخر ما يقاسيه أهل الأعراف الذين هم بين الجنة والنار، ثم يدخلون بعد ذلك في زمرة المعفو عنهم

عند ذلك ينهزم إلهه الشر الهزيمة الأخيرة ويُلقى بالثعبان الذي كان يمثله في وسط هذه المعادن فينصهر فيها ويستقر كل من السعداء والأشقياء في مكانه استقراراً أبدياً بلا تغيير ولا تبديل. ولكن عقيدة التأبيد في الجحيم لم تستمر على حالها، بل لم تلبث أن صارت موضع نقاش بين رجال الدين انتهى بأن قر الرأي على أن للعذاب في الجحيم حداً ينتهي عنده فيلحق المذنبون بالأخيار المنعمين، وإذ ذاك يتم السلام النهائي.

الفلسفة العملية أو الأخلاق

ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية ولا من اختراع المنافع الفردية حتى تتأثر بالأزمنة والأمكنة والظروف المختلفة، وإنما هي قوانين عامة خالدة، ولذلك نرى الفضائل الجوهرية هي هي عند قدماء المصريين، وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت طباعهم، وتبدلت فِطَرُهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك البشري.

لهذا كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف ودرجات، لكل صف منها منزلته الخاصة، فمثلا الشرف والاحسان والأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول. ولقد كانت العدالة والعفة والاخلاص والصدق

من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشرى وتقويته من أهم الواجبات الدينية ، ولهذا أباحت الشريعة « الزرادشتية » تعدد الزوجات ، ليكثر النسل ، وحرمت الصوم لتوفر القوة فى جميع أفراد الشعب ، وكذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض والاستمتاع بما فى هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة كانت من أسمى فروض الشريعة حتى أن إهمال بقعة من الأرض بدون نبات أو عدم الاكتراث بالتزين كارتداء رث الملابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر ، كل ذلك كان من الجرائم المقوتة ، أما الرذائل المستقبحة فهى أضداد هذه الفضائل طبعاً .

هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم وجميع الأطعمة المغذية ومحاولة الاحساس بالسرور ، ومثل مهاجمة الأعداء من الأفراد بنظير ما قدموه ، أما الدفاع عن النفس أو عن الوطن ، فقد كان من الواجبات المقدسة .

هذه هى أهم الفضائل الجوهرية والثانوية ولم يبق عدا ذلك إلا أعمال هى إلى الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية كذلك مثل حظر قتل القنافذ وكلاب البحر كما أسلفنا .

الديانة المانوية

حياة مانى

لم يعرف التاريخ عن حياة « مانى » أو « مانيس » مؤسس ديانة المانوية أكثر من أنه ولد فى « بابل » سنة ٢١٥ وقتله جد ملوك الفرس فى سنة ٢٧٥ بعد المسيح وأنه كان متنسكا متصوفا متشائما لا يؤمن بانتصار الخير على الشر ألبتة ولا أمل عنده في صلاح هذا الوجود ، وأنه تأثر فى بعض نواحى مذهبه بزرادشتية وفى البعض الآخر باليهودية القديمة التى عبثت بها الوثنية الرومانية فبدلت منها الشيء الكثير ، وفى البعض الثالث بديانة البراهمية الأولى ، وفى الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة كما يتبين ذلك كله فى آرائه .

مذهبه

يرى « مانى » أن العالم نشأ من انعلاق قسم جسمه إلى أجزاء ثم كون الموجودات من بعض هذه الأجزاء . ولا ريب أنك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود ، وهي التى حدثتنا عن اشتياق الإله « براجاباتى » إلى التكثر وعن تجزيئه نفسه وتنثيره أجزاءه فى الكون ليوجد منها جميع الكائنات .

أما رأيه فى المبادئ الأولى فهو يتلخص فى أن لكون مبدأين الخير والشر ، وهما أزليان أبديان متساويان فى كل شيء . ولاشك أنه فى هذه النقطة قد تأثر بزرادشت من ناحية وبديانة « الثانوية » الغالية التي نشأت من مذهب زرادشت من ناحية ثانية . وإليك ما يقوله الشهرستانى عن هذا المذهب : « حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكروا وجود شيء لا من أصل قديم وزعم أنهما لم يزالا قوتين ، حساسين ، سميعين ، بصيرين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفى الخير متحاذيان تحاذى الشخص والظل » . إلى أن يقول : « ثم اختلفت المانوية فى المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم : إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار ؛ وقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت إلى الروح فرأت النور فبغت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشر ، فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكا من ملائكته فى خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان نسيم ، وإنما الحياة والروح فى هذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات من الدخان ، وخالط الحريق النار ، والنور الظلمة ، والسموم الريح ، والضباب الماء ، فما فى العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور ، وما فيه من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته بخلق هذا العالم على هذه الهيئة ، لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة » (١) .

الميتافيزيقا المانوية

يرى هذا المذهب أن الانسان الأول مخلوق للنور أو للشمس الذى هو « أهورا مازدا » وكان هذا الانسان فى أول الأمر نوراً

(١) صفحتى ٦٥ و ٦٧ من الجزء الثانى من كتاب الشهرستانى

محضاً وأن حكمة خلقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلام ، ولكن هذا الخصم العنيف لم يلبث أن انتصر على الانسان وكبله بالأصفاد وقاده إلى سجنه الحالك ولكن قوة إلٰه الخير عملت على تخليصه من هذا السجن فنجحت بعض الشيء ، لأن إلٰه الشر كان قد تمكن من حبس جسمه النوراني في هذا الغمد الكثيف المكون من المادة المظلمة . وإذاً ، فالمادة أو الجسم الانساني أو « الماكروسكوم » و « الميكروسكوم » كما كانوا يسمونهما هما أصل الشر والسوء في هذه الحياة ، لأنهما سجن الروح النورانية ومن هذا نشأت عند « ماني » فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم أو إنهاء هذا العالم المادي باضعاف النوع البشري وإبادة النسل بوساطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبب إليهم زرادشت متع الحياة ولذاتها وعرفهم وسائل القوة والاخصاب .

مصير العالم المادي

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد لأنها تبعث خطوات الزرادشتية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلا فيما يختص بفناء الشر وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقق السلام العام ، فقد أنكرت المانوية ذلك تمام الانكار ، وجزمت بأن المملكتين ستظلان متباعدتين متعاديتين أبداً .

نهاية ماني

لم تكد مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تذمر الشعب مما احتوت عليه من ضعف ويأس وتشاؤم وانزواء وحرمان من لذات الحياة المباحة ، ثم أخذت هذه الضجة تعلو وتنتشر حتى بلغت أسماع الملك فأحضره أمامه ، وناقشه في مذهبه ، فلم يخف عليه شيئاً مما فيه ، وصرح أمامه بأن التخلص من الشر أمر مستحيل ، وأن استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هي تدمير هذا العالم ، فلم يكن من الملك إلى أن قال له : إن الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه ، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم ، ولما كنا من أنصارك فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك ، ثم أشار إلى الجلاد أن ابدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع في تحقيق مذهبه وقد حدث هذا بالفعل كما أشرنا إليه في حياة ماني .

الديانة المزدكية

عاش « مزدك » حوالي نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، وكان قد تأثر بمذهب ماني من بعض نواحيه ، وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية ، وإن كان قد خالفه في آرائه الاجتماعية مخالفة شديدة حيث أعلن وجوب اعتناق الشيوعية المغالية ، وصرح بأنها هي وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر ، إذ الحقد الذي يأكل قلوب بني الانسان ، والحرب التي تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لا مصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فاذا ألغيت الملكية وأبيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود ، وهو كما يبني أن تباح الأموال والنساء ، يريد كذلك ألا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التي هي منشأ كل بلاء في هذا الكون .

سقوط الديانات الفارسية

لما فتح « الاسكندر المقدوني » بلاد فارس وانتشر الاغريق في أنحاء البلاد وأحرقوا الكتب المقدسة والصحف الدينية تبلبلت العقول والأفكار والعقائد في تلك الأصقاع ، وصادفت هذ الاضطراب ظروف أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، وهي اجتماع ذلك الخليط العجيب من الفرس والمصريين واليونان واليهود في مدينة الاسكندرية كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن الأفلاطونية الحديثة .

اجتمع هذان العاملان القويان فحدث من اجتماعهما مزيج ديني غريب غمر الشرق الأدنى من أقصاه إلى أقصاه . ويعلل الأستاذ « سورا » على هذا بقوله : « إن هذا التخمر الديني المتباين العناصر هو الذي قذف بالمسيحية إلى حيز الوجود كما تقذف الأنبذة بالزبد إلى خارج أوانيها » .

هذا في فلسطين ومصر ، أما في بلاد بارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسية « الزرادشتية » بعد أن عبثت بها أيدي الأهواء والأغراض ، وبدلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين وشهواتهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحن الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها الاسلام وهو في عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » تتلاشى تماماً أمام الاسلام ، وإنما تركت آثاراً تذكر في بعض نواحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لوناً من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تغني عمر الخيام بالخمر وتقديس بشار بن برد للنار وزندقة ابن المقفع ومروق الجاحظ في بعض آرائه إلا من بقايا الديانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة « الزرادشتية » اكتساحاً ملموساً ولم يدع لها من معتنقيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند وهم الذين أشرنا اليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم لا يزالون يُعرِّضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوربا مع الرومانيين الذين كانوا في بلاد فارس ، ثم جعلت تنتشر في جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلاها في الأهازيج أقرب منها إلى المذاهب الجدية كأن تصرح مثلاً بأن خالق الكون هو إله الشر ، وأن المسيح هو إله الخير بصمه العنيف الذي ضرب المثل الأعلى على خيريته بتضحية نفسه للصلب في خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا النحو حتى ابتلعتها نهائيا ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر في أوربا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية وما شاكلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها الأول ثم حملتها معها إلى أوربا فكانت جرثومة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوربية في العصور الحديثة .

« يتبع »

محمد قمحوب

التخيـــــل (١)

للدكتور جميل صليبا

للتخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جعله قوة مصورة تعيد ما في الخيال من الصور وتمثله تمثيلا محسوساً . وبعضهم جعله قوة مبدعة تركب الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع . وبعضهم جعله قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم: إنها « مجنونة النزل» و « باعثة على الخطأ والرذيلة» أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضرورياً للانسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون . إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفه المعاصرين يقول : إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها(٢) وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن في كل من الصورة (التخيل التمثيلي) والابداع والأحلام شيئاً من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل المبدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي والتخيل المبدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس في الشعور بعد غياب المؤثر . أو هي ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلياً Imagination reproductrice لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقي فيها بعد غياب المحسوسات. فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما ترى على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goblot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال بحسب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)